

تكون مقبولة إذا نُظِرَ إلى الوحدة السجعية^(١) منفصلة عن النص التي وردت فيه، فالمعايير المتمثلة في استخدام الكلمات (أحسن - ألد - عيب فاحش) هي معايير مضللة ما لم تنتج اعتماداً على وعى بالكيفيات التي تتكاتف بها وحدة سجعية مع بقية الوحدات في النص تكاتفاً ناجحاً، وهذا ما تجاهله الوصف الترائي الذي اتخذ مادة فحصه من الشواهد والأمثلة المعزولة عن قوامها الكلي. فليس للتساوي أو التفاوت في مدى الفقرات المكونة للوحدة قيم مطلقة تحملها الوحدة السجعية معها إلى النص بصرف النظر عن الوحدات المجاورة لها؛ ذلك أنه تتخلق من خلال التجاور تلوينات إيقاعية جديدة، ومن ثم فقد تفقد "القوالب المسافية" القيم المطلقة التي مُنحت إياها في الوصف والنقد الترائي.

وتدلّ هذه التعديدات التي تأخذ عن البلاغيين القدماء بالتقنين للسجع من جهة الميزان الصرفي والعروضي، ثم من جهة الطول والقصر، وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما، على نزعة شكلية تعنى بضرب من معمار الصياغة وهندسة الجمل المسجوعة، مما يدل على أن الشكل باتت له -بلغت الجشطلتين- صيغة وأرضية يتحرك فوقها المضمون. وتدل من جهة أخرى على أن السجع في عصور لاحقة ازدهرت فيها الفنون ذات الطابع الإسلامي، يحكمه كما يحكم هذه الفنون، قانون تكرار الوحدات، وهذا مما لا يتأتى دفعة عند تأمل فنون الأرابيسك، إذ يبدو تكرار الوحدات المتنوعة محكوماً بقياسات تؤلف هندسة الشكل -لاسيما في فن الزخارف الإسلامية. ونحن على هذا النحو بإزاء قاعدتين هما التكرار والتنوّع، ومن جدلية العلاقة بينهما تتألف الصيغة بإيجاد تقسيم للوحدات اللغوية في السجع، والشكلية في الزخرف وفن المنمنمات، بحيث يتكرر كل قسم من أقسام الوحدات المتنوعة على نحو منتظم.^(٢)

(١) استخدم ديفين ج. ستيوارت تعبير "الوحدة السجعية" ليعبر عن عدد العبارات السجعية التي تتجمع مشكلة وحدة واحدة. انظر السجع في القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٠.

(٢) انظر: البديع في تراثنا العربي، عاطف جودة نصر، مقال منشور في مجلة فصول، م ٤، ع ٢٤، ١٩٨٤، ص ٧٩.